المقالة الخامسة عشر[1]

في ذكر الآباء المتوفين

يوجعني قلبي فتوجعوا معي يا إخوتي العبيد المباركين ، تعالوا فأسمعوا أن نفسي توجعني وجوانحي تؤلمني ، أين الدموع ؟ وأين التخشع ؟ حتى أحمِ جسمي بالدموع والزفرات .

من ذا ينقلني ويخلصني من مكان غير مسكون ؛ حيث لا يوجد ألبته صوت أبناء البشر ؛ حيث يكون الصمت وعدم جلبة ، حيث لا يكون رهج يقطع الدموع ، ولا مفاوضة شعب تعوق البكاء .

فكنت أرفع صوتي وأبكي لدى الإله بعبرات مرة ، وأقول بزفرات : أشفيني يارب لكي أبرأ ؛ لأن قلبي يوجعني فوق الإفراط ؛ وزفراته لا تتركني لحظة أن أنال راحة .

لأنني أعاين قديسيك كذهب منتخب ، تأخذهم من هذا العالم الباطل إلى نياحة الحياة . بمنزلة الفلاح الفهيم العاقل الذي إذا رأى الأثمار بالغة حسناً يقطعها بإسراع لئلا تضرها عوارض ما وتفسدها .

هكذا أنت أيها المخلص تجمع المصطفين العاملين أعمالهم ببر ؛ ونحن الوانيين والمسترخين بالنية تبقينا في قساوتنا وثمرنا لا يتغير عن ماهيته .

لأن ليس له نية ليبلغ في الأعمال بلوغاً حسناً ؛ ويقطف كما يليق ؛ ويجعل في مخزن الحياة ؛ لأن ثمرنا ليس له دموع لتوصله إلى تناهي البلوغ ؛ ولا تخشع لتتناهى نضارته من نسيم العبرات .

ولا تواضع ليظلله من الحر الكثير ، ولا هجر قنية لينتقل من الأمور المضادة ، ولا محبة الله الأرومة القوية الحاملة الثمر ، ولا عدم الاهتمام بالأمور الأرضية ، ولا سهر ، ولا عقل متيقظ في الصلاة .

فعوض هذه الأشياء الحسنة ؛ والفضائل الصالحة له أضدادها غيظ مذموم ، وغضب يبيسان الثمر لئلا ينمو فينتفع به ، وكثرة قنية ، والضجر العظيم ينقلانه إلى أسفل .

هذه المصائب كلها تشتمله ؛ ولا تتركه ينتهي إلى البلوغ كما يليق ليستوي ؛ ويصلح لصاحبه الفلاح السماوي .

ويلك ويلك يا نفس تكلمي وأبكي إذ فقدت بسرعة الآباء الكاملين ؛ والنساك الأبرار .

أين الآباء ؟ أين الكاملون ؟ أين القديسون ؟ أين المستفيقون ؟ أين المتيقظون ؟ أين المتواضعون ؟ أين الودعاء؟ أين الصامتون ؟ أين الساكتون؟ أين المتورعون ؟ أين العادمون القنية ؟

أين المتخشعون المرضو الله الذين كانوا يقفون في الصلاة النقية قدام الله كملائكة منيرين يبكون حتى يبلوا الأرض بعبرات الخشوع الحلوة ؟

أين المحبو الله الموعبو محبة ؛ الذين لم يقتنوا شيئاً على الأرض ؛ بل حملوا صليبهم ؛ وأتبعوا المخلص أتباعاً دائماً ؛ وسلكوا في الطريقة الضيقة متأملين حذرين أن يسقطوا في الهفوات .

أو في برية غير مسلوكة ؛ وفاقدة الماء ؛ ومظلمة ؛ بل سلكوا طريق الحق الممهد ؛ طريق وصايا الرب ؛ سائرين في الطريق المملوء استنار ؛ إلا وهو أوامر المسيح ؛ خادمين الله بسيرة حسنة وبحرارة ، حزناء باختيارهم في العالم الباطل .

---

[1] كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في برية الأنبا مقاريوس
طبع سنة ١٨٩٢

فلهذا أحبهم اللـه جداً ؛ وضمهم إلى ميناء الحياة ؛ وإلى الفرح الخالد وليستبشروا هناك ؛ ويتنعموا في فردوس النعيم ؛ وفي خجلة الختن الباقي ؛ لأنَهم ساروا من هنا بفرح إلى الإله القدوس ومعهم المصابيح معدة .

فليس فينا نحن فضيلة أولئك ؛ ولا نسكهم؛ ولا حميتهم ؛ ولا مسكهم؛ ولا ترتيبهم ؛ ولا ورعهم ووداعتهم وتخشعهم ؛ ولا زهدهم في القنية ؛ وليس لنا سهرهم ، وليست فينا محبة اللـه ؛ ولا تحنن الإله ؛ ولا تألم الأعضاء .

لكننا متنمرون غير مستأنسين ، ولا يحتمل بعضنا بعضاً ألبته ، فألسنتنا هي محمية ؛ نتكلم بِها على بعضنا البعض ، كلنا نلتمس الكرامة ؛ ونؤثر التشرف ؛ ونبتغي الراحة لأنفسنا ؛ ونحب القنيات.

نحن مسترخون غير مثابرين على الصلوات ، أقوياء في الهذيان وفي الدوران غير خاضعين ، ضعفاء في السكوت ، نشيطون إلى التنعم ، مقطبون في الحمية والمسك ، باردون في المحبة ، حارون في الغضب ، عاجزون في الصالحات ، حرصون في السيئات .

ترى من لا ينتحب ، من لا يبكي على محبتنا الموعبة رخاوة ، إن أولئك الآباء إذ صاروا قبلنا مرضين للرب خلصوا أنفسهم ، ما كانوا متراخين ، ولم يتخذ الكاملون فكرين لكن فكراً واحداً وهو كيف يخلصون .

وكانوا مرآة صافية للناظرين ، وكان الواحد منهم يستطيع أن يبتهل إلى اللـه من أجل أُناس كثيرين ؛ واثنان منهم إذا وقفا أمام اللـه في الصلوات النقية كانا يقدران أن يستعطفا الإله المتعطف كما يليق عن ألوف أناس .

ويلك يا نفس في أي زمان أنت .

ويلنا يا أحبائي إلى أية حمأة المساوي بلغنا ؛ ونحن نريد أن ينكتم أمرنا؛ ولكون ناظر النفس لا يتيقظ من كثرة العمي والتنزه فلذلك لسنا قادرين أن نتأمل الحزن المنصوب .

وها الآن الأبرار والصديقون يختارون ؛ ويجمعون إلى ميناء الحياة ؛ لكي لا يعاينوا الحزن والشكوك التي تتبعنا من أجل خطايانا .

كان أولئك ينتحبون ونحن نتناعس ، أولئك يجمعون ونحن نتناوم ، أولئك يحفظون ونحن ننجذب إلى العالم الباطل ، أولئك يذهبون إلى اللـه بدالة ونحن نتنزه على الأرض .

حضور الرب قد وقف على الأبواب ونحن نتشكك ونتقسم ، الصوت السماوي متهيئ أن يبوق بأمر الرب ويزعزع الكل بصوته المفزع فينهض الموتى ليستوفي كل أحد نظير عمله .

قوات السماوات مستعدة وقوفاً في مواكبهم ؛ أيوافوا بتقوى أمام الختن إذا جاء بمجد في سحب السماء ليدين الأحياء والأموات ؛ ونحن غير مصدقين .

أترى كيف نكون يا إخوتي في تلك الساعة المخوفة ؟ كيف نعتذر إلى اللـه هناك عن توانينا في خلاصنا ؟ إن لم نحرص الآن ونبكي بوقاحة ونتوب توبة حسنة بتواضع نفس ووداعة كثيرة ، فكم كل واحد منا مزمع أن ينتحب في ضغطته ؟

وإذا تندم يقول بدموع غزيرة : ويلي أنا الخاطئ ، ماذا داهمني بغتة ؟ كيف عبر عمري وغاب عني بالجملة ؟ كيف سُرق زماني أنا المتنزه الطموح ؟ أين تلك الأيام الهادئة التي قضيتها في التنزه حتى أتوب بمسوح ورماد ؟ لكن لا ينتفع من كثرة هذه الأقوال .

وإذا شاهدنا القديسين يتطايرون بمجد في السحب ؛ سحب الأهوية لاستقبال الرب ملك المجد ؛ ونعاين ذاتنا في ضغطة عظيمة . ترى من منا يستطيع أن يحتمل ذلك الخزي والتعيير المض ؟

فلنفيق يا إخوتي ؛ فلنستفق يا أحبتي ، ولنتيقظ أيها المحبو اللـه ، ولننهض يا خلان اللـه .

أيها الأولاد المحبوبون من الإله الآب ، لنصغين إلى ذاتنا ؛ ولنجمعن أفكارنا قليلاً من هذا العالم الباطل ؛ ولنبحث أمام اللـه بعبرات غزيرة متضرعين بوقاحة وحرص وزفرات قلب ؛ لينجينا من

النار التي لا تطفأ ، والعذاب المر ، لئلا نفارق السيد الحلو الذى أحبنا وبذل ذاته على الصليب من أجلنا .

وأنا غير المستحق الخاطئ ، أتضرع إليكم وأطلب إلى جماعتكم ؛ أن تذرفوا من أجلي دموعاً في صلواتكم وطلباتكم النقية ؛ طالبين لي التخشع لأبكي معكم ؛ وليستضئ قليلاً قلبي الأعمى .

وأطلب إلى الإله المخلص القدوس ؛ لكي ما يعطيني نشاطاً وحرصاً فأتوب ما دام يوجد وقت تقبل فيه الدموع ؛ وأخلص معكم .

يا إخوتي أنا غير مستحق الحياة ، يا أحبتي أطلب إليكم أن تقبلوا استغاثة إفرآم الخاطئ أخيكم المسترخي ؛ ولنحرص كلنا أن نستغفر الإله القدوس ما دام لنا زمان ؛ لأن ها الرب قد وقف على الأبواب ليفني العالم الباطل .

وله السبح إلى الأبد
آمين

فصل

هذا هو اليوم المتقدم والمشرف ؛ فلنسبح بتشريف أسرار الابن الوحيد ؛ ولنصرخ بالتسبيح في الكنيسة التي هي عروس المسيح ؛ مشيدين بانتصار الآباء الأبرار ؛ ولنرتل مدائح القاطنين القفر ؛ واصفين جهاد الذين تركوا المدن ؛ وآثروا بشوق أن يسكنوا البرية لمنفعة كافة الذين يسمعونه ؛ لكي بصلوات الآباء الأبرار ؛ وبصلوات السامعين يخلص المتكلم .

لأن الآباء الأبرار لم يبتعدوا منا إذ اشتقنا إليهم ؛ ولم نفارق جلالهم كأنَهم غرباء عنا لأنَهم يبتهلون دائماً من أجل هفواتنا .

وليسوا ذوي مقامات دنيئة بل مشرفون ولا حقيرين بل مكرمون ، ولا فاقدي العلم بل علماء لأنَهم كانوا معلمين لكل الناس بأعمالهم الصالحة لأنَهم كانوا قد تعلموا من سيدهم أن يجولوا الجبال مغتذين كاغتذاء الوحوش .

كانوا تامين مملوءين عدلاً ؛ وإذ صاروا أعضاء الكنيسة لم يفصلوا أنفسهم من الرعية لأنَهم أولاد الاستنارة المقدسة ؛ ولم ينقضوا الناموس بل حفظوا الكهنوت ؛ وحفظوا الوصايا ؛ ولم يقاوموا الشريعة بل كانوا حارين في الأمانة .

وحين كان الكهنة المكرمون يقفون قدام المائدة المقدسة يقربون الخدمة كانوا هم أول من يمدون أيديهم فيقبلون بأمانة جسد السيد الذي كان معهم دائماً .

كانوا كحمام طائر في العلاءِ ، نصبوا مساكنهم في الصليب ؛ تائهين في مواضع مقفرة كالغنم .

فحين سمعوا صوت الراعي عرفوا في الحين سيدهم الصالح ، كانوا تجاراً قد خرجوا يلتمسون الدرة النفيسة ، كانوا مجتهدين مختبرين في جهاد العبادة الحسنى .

أصغوا إلى مسامعكم ؛ أميلوا آذانكم حتى أصف لكم سيرة الآباء القاطنين البرية ، أجمعوا فكركم وسافروا به معنا إلى وسط الصقع المقفر فسنشاهد هناك عجباً عظيماً ؛ ومجداً ؛ ولنذهبن في طرفة فنسطر رسوماً صالحة وعجيبة رسوم سيرتِهم .

فإن الشوق إليهم يضطرني كثيراً أن أذهب فأعرف من كنوز سيرتِهم ، وأرهب أن أتقدم إليهم سراً؛ وإذا حضرت عندهم ولو مدة يسيرة وأراهم يحنون ركبهم ليبتهلوا إلى اللــه ؛ يستطيعون أن يجعلوني أنا الموجود الضعيف متأيداً متوطداً .

إذا مدوا أيديهم ورفعوها إلى السماء ؛ يقوموا نطقي لكي ما أمدحهم بأمانة ، إذا تضرعوا يقف معقولي ثابتاً ويفرح بوداعتهم ، وكذلك لساني يتلذذ إذا تنغم بوصف سيرتِهم .

إذا سكب واحد منهم سحابة دموع عن هفواتي فللحال يستجاب له ، أولئك القديسون شابَهوا المسيح نفسه ، واقتنوا البيوت في البرية لأنه لا يمنع من كنوزه الصالحة الذين يقصدونه في الساعة التاسعة والعاشرة ؛ بل يعطيهم أولاً بما أنه سيد صالح كإعطاء الأجرة للفاعل الذي عمل في الساعة الحادية عشرة في كرمه بنشاط ؛ فقد فتح المخزن والغنى يعطي للمريدين أن يتقدموا ويتسربلوا بالمجد الذي كانوا يلتمسونه دائماً .

فلنتخذ رسماً حسنة شريفة ؛ ونصير مشابِهين لسيرتِهم ، فمن يريد أن يحرص ويذهب فيلبس الحلة التي لهم ويستغنى بثروتِهم .

ومن قام عندهم يبدأ في الحين أن يعطي للذين يسألونه طلباتِهم ، لأنَهم يعطون لكافة من يسألهم ، ويمنحون الكل المواهب التي اقتنوها .

فلنتقدم فنأخذ منهم عطية نفيسة صلاة وترتيلاً ، نأخذ محبتهم التي هي أشرف وأرفع من جواهر كريمة وزبرجداً شريفاً ، وعوض اللؤلؤ فلنأخذ أمانتهم القوية المشرفة التي من أجلها صاروا تائهين في الجبال والآكام والمغائر والثقوب .

هب لي يارب قوة وتأييداً للساني لئلا ينغلب من تعب سيرتِهم ولأصف شيئاً من جهادهم البهي ، فلهذه الحال إذا نَهضنا فلنطرح أسلحة الشيطان ونعطف قلبنا ونجعل لنا أجنحة حمامة ؛ ونطير فنبلغ حتى نشاهد سيرتِهم .

لأنَهم تركوا المدن وضوضاءها ؛ وتاقوا إلى الجبال والبراري أكثر منها ، فنمضي فنشاهد مساكن أولئك ، وكيف هم جالسون كالموتى في القبور ، نذهب فنعاين تنعم الذين يتنعمون بفرح بين الجبال .

نمضي فنبصر الماقتين للعالم والمؤثري التصرف في البراري أكثر جداً ، نذهب فنشاهد أجساد أولئك كيف قد تسربلت بشعورهم ، نمضي فنعاين مسوحهم التي لبسوها بسرور ممجدين الله ، نذهب فنشاهد وجوههم كيف بتقطيبها قد ضاعفوا بِها نفوسهم .

نمضي فنبصر الملائكة معهم مهللين ومرتلين بسرور جزيل ؛ نذهب فنشاهد طاساتِهم الممزوجة بدموعهم ، نمضي فنبصر موائدهم مملوءة دائماً من البقول البرية ، هلموا فلنبصر حجارة أولئك التي يضعونَها تحت رؤوسهم .

فلنذهب ونأخذ من شعور القديسين ؛ لنتخذ السيد متعطفاً علينا ، إن شاهدهم لص يجثوا ساجداً لأنَهم متدرعوا الصليب دائماً .

إذا أبصرت الحيوانات الوحشية مسوحهم ؛ للحين تبتعد منهم ناظرين عجباً عظيماً ، كل ما يدب يدوسونه بأرجلهم ؛ لأنَهم لابسون ومحتذون أمانة العدل .

إذا أبصرهم الشيطان في الحال يفرق منهم ويعج بتوجع هارباً في الحين، لأنَها تكسرت ربوات فخاخ نصبها وراءهم ؛ ولم يمكنه بالجملة أن يضرهم لأنَهم لم يكونوا مسترخين مثلنا نحن الجهال بل منتصبون بشهامة في محاربة العدو إلى أن سحقوه تحت أقدامهم إلى النهاية ، وسحقوا أفكاره واغتيالاته ، ولم يجزعوا من كافة حيلة .

فكان إن أراهم غنى لم يعتدوا به شيئاً بل يحتقرونه ويطئونه كالصخرة ، لأن الغنى كان لهم في السماوات مع الملائكة القديسين .

والجوع ما كان يحزنَهم لأنَهم كانوا يغتذون من خبز المسيح النازل من السماوات القدسية ، إن العطش لم يلهبهم لأن المسيح كان لهم في أنفسهم وفي لسانَهم عين الحياة . لم يستطع الخبيث أن يزعج فكراً واحداً من أفكارهم ؛ لأنَهم وضعوا أساس أمرهم على الصخرة .

وقطنوا المغائر والكهوف كأنَهم في القصور المزخرفة ، والجبال والروابي التي كانت تكتنفهم كانوا يؤثرونَها بمنزلة أسوار عالية ، وكانت الأرض والجبال لهم مائدة ، وعشائهم كانت الحشائش البرية ، ومشربَهم اللذيذ الماء من الأودية ، وخمرهم الماء من ثقوب الصخور .

وكانت لهم كنائس ألسنتهم التي بِها كانوا يكملون صلواتَهم الاثنتا عشر ساعة التي يشتمل عليها النهار ، كانت لهم صلاة إلى سيدهم ، والتمجيد الذي كانوا يرتلون به في الجبال والمغائر كان يقدم إلى اللـه ذبيحة حسنة مقبولة . هم كانوا كهنة لأنفسهم .

ويشفون بصلواتِهم أمراضنا لأنَهم شفعاء لنا كل حين،لم يعقلوا رؤيات عالية ، ولا كانوا يلتمسون التصدر في المجالس لأن شرفهم كان التواضع . صاروا مشابِهين للسيد المسيح الذي تمسكن من أجلنا نحن الأشقياء .

لم يعطوا أنفسهم نياحاً في العالم إذ كانوا منتظري النياح الذي هناك .

فلنصيرن متشبهين بالقاطنين في الجبال ؛ ومشاركين لسيرتِهم ، لأن أولئك كانوا جائلين مع الوحوش كأنَهم وحوش ، وكالطيور كانوا يطيرون في الجبال ، يرعون كالآيلة مع الوحوش الوحشية.

ومائدتِهم كانت مستعدة دائماً ؛ لأنَهم كانوا يرتعون العشب الأخضر والحشائش بمداومة ؛ جائلين في الجبال كسروج واضح ضيائها ، وكان الذين بشوق كثير يقتربون إليهم يستضيئون بضيائهم .

كان الآباء الذين في البرية سوراً منيعاً ؛ فلذلك أي موضع كانوا يسكنونه يجعلونه أميناً أنيساً ، إلى أي صقع انتهى واحد من الآباء يصير جميع الموضع الذي يحيط به أنيساً موعباً سلامة .

كانوا يتطايرون إلى الروابي نظير جمع الحمام ؛ ومثل النسور في الجبال الشامخة ، لا يتنعم رؤساء العالم بالقصور والسقوف المذهبة كما يسر هؤلاء بالجبال والمغائر ، وربما الملك يضيق به البلاط أما هؤلاء فواسعة عليهم ثقوب الأرض ورحبة كثيراً .

الثياب الشعرية التي لبسها الآباء الأبرار وابتهجوا بِها أكثر من الملابس البرفيرية ؛ فهذه رثت وبليت ، والمسح من أجل صبر الآباء القديسين بُجل ووقر ، لأنَهم رفضوا الكبرياء وآثروا التواضع الجزيل ، مقتوا كل شرف العالم الباطل ؛ وها هم يشرفون من كافة الناس من أجل غزارة تواضعهم ووداعتهم .

فالملوك ما اقتنوا مثل هذه الراحة ؛ نظير الراحة التي أقتناها الآباء في البرية ، لأن المسيح كان بَهجتهم ، رعوا في البرية الحشائش كالوحوش كانوا ينتظرون الفردوس المطرب .

إذا ضعفوا من الجولان في الجبال كانوا يضجعون على الأرض كأنَهم في نعيم لذيذ ، إذا ناموا كانوا يقومون بإسراع كأنَهم أصوات أبواق ملوكية يسبحون المسيح المشتهى ، وكانت مواكب الملائكة معهم دائماً وتحصنهم وتحفظهم كل وقت ، ونعمة السيد كانت معهم سرمداً .

ولم يخدعهم العدو ، وحين كانوا يحنون ركبهم يصنعون قدامهم طيناً وينشدون من عبراتِهم غدراناً ، إذا ختموا تسبيحهم يقوم السيد وعبيده يخدمون مرادهم .

إذا حلك الظلام ؛ في الحين يرفعون أجنحتهم ؛ ويطيرون في كافة المسكونة ، لأنَهم لم يكن لهم مسكن ظاهر ؛ لأن مسكن الآباء القديسين الحقيقي هو عدن ، حيث تغرب لهم الشمس هناك يحلون ، وحيث ما يلحقهم الليل هناك يجعلون منزلهم .

ما كانوا يذكرون قبراً ؛ لأنَهم كانوا موتى ؛ وإنصلبوا للعالم بالشوق إلى المسيح ؛ لأنه حيث كان أحدهم يسكن يصير له ذلك الموضع قبراً .

وكثيرون منهم إذا أحنوا رؤوسهم في الصلاة ؛ تنيحوا بِهدوء أمام السيد ، آخرون استندوا إلى صخرة ؛ وسلموا نفوسهم إلى سيدهم ، آخر بينما كان يتمشى في الجبال مات وصار له الموضع قبراً ومدفناً معاً .

آخر دفن ذاته بارتسام الشكل فقبض بنعمة سيده ، آخر بينما كان يرعى خضرة السيد نعس فتوفى في مائدته ، آخر حين كان واقفاً في تلاوة التمجيد خطفت منه نعمة نسمته .

آخر بينما هو واقف في الجبال مرتلاً ومتضرعاً ختم الصلاة بنفسه ، كانوا منتظرين النهاية القدسية ، الصوت الذي ينهض فيزهرون كالأزهار الفائحة نسيم الطيب .

إذا أمرت الأرض أن تبرز الموتى يبنعون في الحين ويزهرون كالسوسن الأبيض ، وحينئذٍ السيد عوض العمل الكثير والتعب الذي احتملوه من أجل محبة المسيح يعطيهم الحياة الدائمة سرمداً .

وبدل شعورهم يمنحهم إكليلاً مضفوراً شريفاً ، وعوض المسوح التي شقوا بلبسها يعطيهم حلة العرس المجيدة ، عوض الحشائش وضيقة الماء يصير لهم المسيح مطعماً ومشرباً ، وبدل ثقوب الأرض التي سكنوها يمنحهم المسيح الفردوس المعظم ، ولكونَهم لم يأثروا أن يكون لهم حِرز في العالم هو يخول لهم السرور العظيم .

أنه غير ممكن أن نوضح بالكلام الفرح الجزيل الذي يحصل فيه كافة القديسين ؛ الذين باختيارهم حزنوا وضيقوا على أنفسهم في هذا العالم ، الذين ناصبوا وجاهدوا الآلام النجسة ؛ وغلبوا العدو ؛ وحفظوا وصايا الإله العلى .

فلذلك يطوب الملائكة القديسين ؛ ويقولون لهم : مغبوطون أنتم الذين من أجل شوق المسيح دبرتم مركبكم تدبيراً سديداً في الأرض بفطنتكم ؛ وبغزارة صبركم ، وقومتم وصايا المسيح السيد الصالح بحق .

فلذلك وصلتم إلى الميناء الصاحي واتخذتم المسيح الذي تُقتم إليه ، نَسر معكم أيها المغبوطون لأنكم نجوتم من فخاخ العدو ؛ وجئتم إلى المسيح الذي كللكم وصرتم وارثين ملكه ، وحين يرى الخبيث نفسه مغلوباً يجلس فينتحب ويقول ببكاء :

الويل لي أنا الشقي ؛ وماذا أصابني أنا المُحطم ؟ كيف غُلبت ؟ أني أنا سبب هذا الأستخزاء ، لأني أنشأت معهم الحرب بإلحاح كثير ، ولما هُزمت من المعركة الأولى والثانية كان يجب أن أفطن أن المسيح معهم .

فالآن إذ حاربت القديسين العجيبين فازداد ثوابِهم بذلك وغُلبت ، فانْهزمت بخزي عظيم ؛ ملطخاً رأسي بالدماء من جراحاتي ؛ لأنني نصبت الفخاخ لاقتنصهم ؛ فأخذوها وكسروا بِها رأسي ، ونشابي الحاد الذي أرسلته إليهم تناولوه بدهاء وقتلوني به .

أنا حاربتهم بآلام مختلفة ؛ وهزموني بقوة الصليب ، فبواجب تألمت بِهذه أنا الجزيل الغباوة ، إذ أوضحت المجاهدين بغير اختياري مدربين مختبرين ، لأنه كان سبيلي أن أرتدع من آلام المسيح لأنه هدم كافة قوتي ، كنت عملت كل الأشياء حتى يُصلب ؛ فبموته دفعني إلى الموت .

وهذا الأمر أصابني نظيره من الشهداء؛ إذ صرت عاراً وخزياً وضحكاً، لأنني حركت الملوك ، وأعددت لكي ما إذا عاينوها يُذهلون ويجحدون المسيح ، فليس أنَهم لم يُذهلوا فقط من آلام العذاب المختلفة بل إلى الموت اعترفوا بالمسيح .

هكذا الآن لما أردت أن أغلب هؤلاء بالقتالات غُلبت فانْهزمت بخزي عظيم ؛ ولن أستطيع أن أحمل العار الذي حل بي أنا المتشامخ بالعظائم ، تحطم عزي وكافة اقتداري من أناس حقيرين .

أما بعد فلست أعلم ماذا اصنع أو بماذا أعتذر ، إن الحقيرين والأميين قد أخذوا إكليل الظفر وأنا الشقي احتضنت بالخزي ، أظلميت تحيرت نفذت قوتي .

ماذا أعمل أنا الشقي ؟ وماذا أصنع ؟

فأهرب إذاً من هؤلاء المجاهدين الشجعان ؛ وأذهب إلى أصدقائي المتوانيين بنيتهم ؛ حيث لا يكون لي تعب ؛ ولا أحتاج لحيل .

لأنني آخذ منهم رباطات وأشدهم بِها ؛ وإذا قيدتَهم بالقيود التي يسرون بِها يكونون فيما بعد تحت يدي ؛ ويحصلون لي مثل عبيد ، ويعملون دائماً مشيئتي باختيارهم .

وإذا غلبتهم أعود إلى ذاتي قليلاً مفتخراً كبطل ظافر ؛ فإنَهم وإن كانوا يسقطون إلى الهوة لكن مع هذا أتلذذ أنا بِهلاكهم ، وأسر إذا اقتدتَهم إلى طريق التهلكة ليكونوا لي مشاركين في النار التي لا تطفأ.

فإذ قد عرفنا يا إخوتي ضعفه ؛ فلنصغين إلى ذاتنا مغايرين الآباء ؛ فإنَّا إن سلكنا الطرق التي سلكوها ؛ فسنجد فيها يسوع المسيح مرشداً وموازراً إيانا ؛ فإذا أبصر العدو معنا المسيح النور الحقيقي فهو لا يجترئ بالجملة أن ينثني بنظره إلينا ، لأن النور الذي فينا يعمي عينيه .

وكما تقدمت فقلت لكم أيها الإخوة المحبون للمسيح أقول : احرصوا بنا أن ننقي قلوبنا حتى نجذب إلينا معونة نعمة المخلص حتى لا يقتدر العدو علينا ، لأن السفهاء الأغنياء يرومون أن يعطوه قوة علينا بإبعادنا من الله بمخالفتنا وصاياه المقدسة ؛ ليجدنا العدو عراة من النعمة ؛ فيقتادنا ويرشدنا إلى طريقه .

فأتضرع إذاً وأتوسل إليكم دائماً ؛ أن نَهرب من الخبيث مبتعدين منه ؛ ولنحل ونفك القيود التي قيدنا بِها باختيارنا ؛ ملتجئين إلى المسيح حاملين نير تحننه الصالح الخفيف ؛ حتى إذا سلكنا في طرق وصاياه الصالح نصل إلى المدينة التي أعدها الله للذين أحبوه . ويليق المجد والكرامة وعظم الجلالة بالآب والابن والروح القدس ؛ إلى أبد الدهور . آمين .